6

ارتداء الحجاب

كان الشباب والشابات يتبادلون التحيات القلبية وهم يدخلون الڤيلا الفسيحة، المبنية بالقرميد، بأثاثها المذهب، وتحفها الأوروبية، وسجاجيدها الشرقية المزخرفة برسومات الأزهار. كانوا طلبة وطالبات في الجامعة الأمريكية في القاهرة، بنات وأبناء لأطباء ومحامين وموظفي حكومة بارزين. وجوههم الناضرة، الفتية، وضحكاتهم، والثقة التي كانوا يتصرفون بها، تمثل دليلاً يثبت مكانتهم النخبوية. فلم يتحملوا الأعباء الثقال التي يبتلى بها الملايين من المصريين الآخرين في أواخر سني مراهقتهم أو في أوائل العشرينات. وكانت حياتهم مرسومة لهم بالتفصيل بمجرد وجودهم. ولما كانوا من نسل الأسر المصرية المرموقة والنافذة فقد كان في وسع الشبان منهم أن يحصلوا على وظائف رفيعة بمرتبات عالية إذا ما أرادوها، كما أن في وسع الفتيات العثور على أزواج أغنياء إذا اخترن أن لا يعملن.

ويبدو أن كلا منهم يعرف مكانه، على الرغم من أن معظمهم لم يسبق له أن زار الڤيلا من قبل. اجتمع الشبان في حجرة الجلوس بالمنزل وجلسوا على الكراسي والأرائك، بينما جلست الفتيات على الأرض في حجرة مجاورة أقرب إلى الباب. وكان معظم الفتيات يرتدين غطاء الرأس وسراويل الجينز من الماركات العالمية الشهيرة، أو سراويل أخرى. أمّا منى بنت المضيفة، فقد

ارتدت نقاباً أسوداً، وجلست بأناقة على أرض الحجرة قرب ردهة المنزل، وعيناها السوداوان المثيرتان ترصدان عن كثب أولئك الذين دخلوا، وحين كان الشبان على وشك المرور قريباً منها، سحبت الطبقة الخارجية من النقاب على رأسها فغطت وجهها كله.

قالت لي منى تعلمني، بعد أن قدمت نفسي: «تعالي إلى غرفة النوم كيما نستطيع التكلم بحرية». وأغلقت الباب، وأخذت تشرح لماذا اجتمعت، هي ومئات من طلاب الجامعة الأمريكية، التي كانت ذات مرة ركناً من الأركان الراسخة للعلمانية، في ڤيلا والديها في تلك الأمسية من تشرين الثاني / نوفمبر 1997. فالطلاب على وشك حضور «درس» (من دروس الدين). يعني هذا حدثاً عابراً لا يثير الانتباه عند كثير من المصريين، ولكنه بالنسبة لمنى، ابنة عضو البرلمان المصري، يكاد يصنف في خانة المسائل المحرمة من النادر أن تشارك ابنة مسؤول رسمي من الحزب الوطني الديموقراطي الحاكم فيما يعده الكثيرون في الحكومة «نشاطاً أصولياً».

وقالت منى تشرح لي: «ارتديت الحجاب منذ ثلاث سنين. في البداية لم يكن أحد في أسرتي متديناً. وكان أبي يقول لنا: (يجب عليكم أن تصلوا)، غير أنه لم يكن يمارس شعائر الإسلام، وكانت أمي ترتدي ملابس السباحة، وأبي يشرب الخمر، وكنا نحظى بكل شيء في الحياة. وقد سافرت إلى أوروبا، وخرجت للتسوق، ولكنني لم أحظَ بالسعادة».

«وبعد أن تزوجت شعرت بالخجل، فأخذت أرتدي السراويل الضيقة تحت ثوب السباحة، وبعد أن أنجبت طفلي الأول ذهبت إلى درس ديني. وشعرت أنني أريد أن أكون مسلمة أفضل، ثم عاهدت الله أن لا أخرج من البيت من دون حجاب. ثم أخذت شيئاً فشيئاً، أرتدي النقاب، ونقابي هو حريتي. لأنه يدعني أختار من يراني ومن لا يراني».

على أن جاذبية الإسلام الشعبي بين النساء المثقفات، والموسرات، مثل

منى وصديقاتها، تشكل تهديداً ماكراً للنظام، وتحدياً فكرياً مربكاً على ما يبدو للعلمانيين في الداخل وفي الخارج، فانجذاب النخبة المصرية إلى الدين يتصل مباشرة بصميم الصراع بين الإسلام والحداثة، علاوة على جهود الإسلاميين اليوم من أجل صياغة حل وسط ممكن التطبيق، بين الاثنين، (وهذه المرة داخل عالم العلاقات البالغ الحساسية بين الرجل والمرأة). وهو يلقي الضوء على أهمية دور المرأة عبر طيف اجتماعي واسع ـ وهو الأمر الذي يثير فزع الناقدين في مصر والمغرب ـ داخل الصحوة الإسلامية برمتها.

تستجيب الآن نساء النخبة المصرية باطراد لنداء الإسلام، شأنهن في ذلك شأن أخواتهن في إمبابة، والحرم الجامعي، والمهن. فقط ارتبطن هن أيضاً بعلماء الدين الجدد، الذين يميلون إلىٰ التوكيد والتشديد، في الرغبة المراوغة في أن يصبحن «مسلمات صالحات». وكثير منهن يستخدمن مواردهن الاقتصادية الكبيرة، ومكانتهن الاجتماعية المرموقة لتعزيز ودعم الحركة. وبدأن بتوسيع مدىٰ تأثيرهن شيئاً فشيئاً حتىٰ يصل إلى المجتمع عموماً. بل إن بعضهن مضين خطوة أبعد، حيث انتقلن من «مرتبة» التابع المخلص إلى الواعظ غير الرسمي. فألقين دروساً دينية نشرن فيها نسخة خاصة بهن من الإسلام غير المتزمت بين الصديقات والمريدات ضمن الأوساط الاجتماعية المرموقة التي يعشن فيها.

وقد ظل دور النساء في المجتمع الإسلامي يمثل، على مدى عقود من الزمان، ميداناً رئيسياً للصراع في الحرب الثقافية بين الشرق والغرب، بين المستعمرين ومستعمريهم. وكان أنصار الحداثة الأوائل في مصر يطالبون بتحرير النساء المسلمات لكي ينافسوا الغرب على نحو أفضل. وفي العشرينيات من القرن الماضي، خلعت النساء المصريات المتعلمات ـ نساء النخبة ذاتها التي تجتذب اليوم إلى الصحوة الإسلامية ـ حجابهن في إيماءة رمزية إلى تحولهن نحو التغريب. وكان المعارضون لهن، في هذه الأثناء، يبحثون عن «الأصالة

المعادية» مناقضة للغرب من أجل الحفاظ على ما اعتبر أدواراً جنسية تقليدية، في وجه الهيمنة الأجنبية.

وعلى الرغم من التحالفات المتقلبة وخطوط المعركة المتغيرة، فقد بدأ الصراع من جديد في السبعينيات، انطلاقاً من النشاط الإسلامي المعاصر. وقد ذهلت أثناء رحلاتي الدورية إلى الغرب من اقتصار رغبة المحررين والناشرين والأدباء على مناقشة انطباعاتي حول وضع المرأة في الإسلام. واعتمدت معظم أسئلتهم على الافتراض المسبق بأن الممارسات الإسلامية مفروضة على المرأة، التي يمنعها عجزها وضعفها في مجتمعات الذكورة من التحكم بمصيرها. وما من موضوع كان يثير اهتماماً وانفعالاً عميقاً مثل الحجاب. وعندما بينت أن الحجاب خيار طوعي يأخذه عدد مضطرد من النساء المسلمات، كان الغربيون كثيراً ما يقدمون تفسيراً معاكساً: إذا كان الحجاب خياراً شخصياً حقاً، فلا بد أن النساء قد تعرضن لعملية غسل دماغ من قبل المتطرفين المسلمين. وأمثال وجهات النظر هذه لم تتزحزح كثيراً عن المواقف التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين، بين المسؤولين الاستعماريين، ولدى البعثات التبشيرية، ومناصري الحركة النسوية الغربيين في العالم العربي والإسلامي. لقد كان ينظر إلى الحجاب على أنه رمز أساسي لكل ما هو رجعي ومتخلف ـ وباختصار، غير غربي. وكثيراً ما جرى تبرير الهجوم على الحجاب أو انعزال النساء المسلمات، باسم التحديث والتفوق الثقافي للأساليب الأوروبية، لدعم هجوم أوسع على المجتمع المحلي على وجه العموم. وكان الحجاب لعبة عادلة مواتية بالنسبة للنقاد الغربيين على اختلاف مشاربهم وقناعاتهم، وظل هذا قائماً على نفس الصورة حتى هذا اليوم.

ولم يكن في وسعي أن أتفادى هاجس الحجاب بين الشرقيين. وعندما غادرت مصر وانتقلت إلى إيران في صيف سنة 1998، أخذت معي

حجاباً «تشادور» أسود متقشفاً، ومفصلاً على الطريقة المصرية. وكانت منى وصاحباتها المؤمنات قد نصحنني بالذهاب إلى خياطتهن، وهي امرأة تصمم النقاب والحجاب من كل النماذج ولكل الفصول، للطبقة الراقية في القاهرة، حيث تعمل في شقة واسعة قرب الأهرام حولتها إلى دار للأزياء الإسلامية. قدمت المرأة «موديلات» متعددة. واخترت طرازاً أخفى شعري كله وأطراف وجهي بإحكام قبل أن يتدلىٰ منسدلاً إلى الأرض. ولكي أضيف إليه شيئاً من الأناقة طلبت أن تخيط عليه قماشاً مزخرفاً أسود اللون على الكمين.

وعندما وصلت إلى إيران كان حجابي (التشادور) يحيِّر الإيرانيين والأجانب على حد سواء، وذلك أن معظم الإيرانيين اعتادوا رؤية النساء الأجنبيات يرتدين أغطية رأس تكشف أكثر مما تخفي من شعرهن، ومعاطف تصل إلى الركبة ـ وهو زي ينتهك من الناحية التقنية قواعد الزي الإسلامي، ويعرف في إيران بأنه «حجاب رديء». واخترت الزي الإسلامي الأكثر محافظة لبضعة أسباب عملية. وقد عرفت مقدماً أنني سأزور آيات الله والملالي الآخرين الذين يمكن أن يشعروا بمزيد من الارتياح إذا كنت أرتدي «التشادور» والملالي. وخططت لمقابلة مسؤولين حكوميين يعملون في مكاتب الدولة، حيث نصبت لافتات تبين النموذج المثالي لما يعد لباساً مناسباً. وكان الرسم المبسط يظهر امرأة ترتدي حجاباً طويلاً وعباءة تصل إلى كاحليها. ولا ريب أن العباءة لا تناسب الصيف الإيراني اللاهب. ولذلك بدا أن التشادور الفضفاض هو البديل الأكثر راحة.

ولم يخطر لي أبداً أن يثير حجابي نقاشاً ساخناً بين الإيرانيين العلمانيين والمتدينين. وقال أحد معارفي ساخراً بعد أن تجاوز الصدمة المبدئية: «أنت أكثر تشدداً من البابا». على أن صديقاً آخر، امتنع عن تقبيل وجنتي قبلة الوداع التقليدية بعد إحدى حفلات العشاء، لأنني «أبدو إسلامية كثيراً». كما قال بعد

أن غزت وجهه مظاهر الاحتشام. وذعرت النساء في أحد النوادي الصحية الراقية في شمال طهران، لرؤية امرأة، ناهيك عن كونها غربية، ترتدي ثوباً شائعاً لدى نساء الطبقات الدنيا. وفي كل يوم، في حجرة تبديل الملابس، عندما يرتدين ثياب التمرين الفاخرة (التي كانت تكشف عن مفاتن أجسادهن بدرجة لم أعهدها في كل النوادي الصحية في الغرب)، كن يحملقن إليَّ كلما خلعت «التشادور». وبلغ من شعورهن بالانزعاج لاختياري هذا «الموديل» من الزي الإسلامي أن الكثيرات عرضن اصطحابي إلى السوق للبحث عن شيء يجدنه مقبولاً أكثر، ولربما يمكنني اختيار معطف من الكريب مع غطاء رأس من الشيفون الشفاف. ورفض البواب عند أحد المباني المرتفعة في طهران أن يدعني أدخل المبنى حيث دعيت لحضور حفلة عشاء، حيث صدرت إليه التعليمات بعدم السماح للمتشددين الدينيين أو أنصار حزب الله الذين يمكن أن يسببوا الإزعاج للمشاركين في حفلة الرقص والشراب غير المشروعة التي تجري في الطابق العلوي. وأنقذني في النهاية بعض الجارات اللواتي أشرن إلى قدمي، محتجات بأنه ما من امرأة شيعية متزمتة يمكن أن تنتعل صندلاً فيروزياً مفتوحاً عند أصابع القدم. وحتى آية الله العظمى في مدينة قم المقدسة، حيث رفض علماء الدين قبل أربع سنوات أن يروني ما لم أكن محجبة تماماً، اقترح أن أستبدل بحجابي (التشادور) العربي معطفاً وغطاء الرأس حسبما تفضله نساء إيران المترفات والأكثر علمانية، وقال آية الله ناصحاً: «ليس من الواجب عليك أن ترتدي كل هذا».

صمم الزي الإسلامي المعاصر للنساء لإعاقة الغواية الجنسية أو الانجذاب بين الرجال والنساء الذين لا تربطهم علاقة الزواج. وبإخفاء خطوط ومعالم الجسد، تسعى النساء إلى الانتقال من وإلى المجال العام مع الحفاظ على حريتها من دون أن ينظر إليها على أنها هدف جنسي. وبالنسبة للكثير من الإسلاميين يعد تمويه الشخصية ضمن هذا الحيز العام ـ كالشارع، والمكتب،

والمصرف ـ شكلاً من أشكال التحرر، وطريقة للحفاظ على المبادئ الأخلاقية والفضيلة والتقوى.

ويكمن مصدر ارتداء الحجاب في الحقبة المعاصرة في الاستجابة لتأويلات الشريعة التي تخصص للنساء مجموعة محددة من الثياب، يشار إليها بأنها «اللباس الشرعي». وكثير من الإسلاميين وأتباعهم يستشهدون بآية في القرآن على أنها دليل يثبت ضرورة التحجب. والآية تعلم المسلمين أن يكلموا نساء النبي من وراء حجاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53]، ويحتج علماء الإسلام أيضاً بأحاديث محددة تؤيد الحجاب، على الرغم من أن كثيراً من الفقهاء يؤكدون أنها لم تتأكد صحتها بسبب عدم ثبوت نسبتها إلى النبي ﷺ.

وما يشار إليه في مصر بأنه «الزي الشرعي» هو في المقام الأول ظاهرة ترتبط بالمدينة، وبالطبقة الوسطى، ويختلف عن الأشكال التقليدية للحجاب الذي ما زالت ترتديه النساء في القرية (الطرحة). وتوجد داخل فئة «الزي الشرعي» الواسعة تدرجات شتى. وحجاب الرأس، الذي يعني حرفياً «الستار»، هو في جوهره غطاء للرأس. أما الخمار الذي يمثل درجة أعلى في عملية التحجب، فهو غطاء رأس يغطي الشعر كله ويمتد حتى الخصر، بحيث يخفي الصدر تماماً. وأما النقاب الذي هو في العادة عباءة سوداء تشبه «الكاب»، تمتد من الرأس إلى الأرض، وتغطي كل شيء ما عدا العينين، فهو المرحلة النهائية. ويعد الحجاب عند كثير من الإسلاميين فرضاً على المسلمات، في حين أن أولئك اللواتي يرتدين النقاب أو الذين يدافعون عنه يتواجدون عادة خارج التيار الأساسي في المجتمع المصري. لكن أمثال هذه التعليمات لا يعتمد عليها. فامرأة مثل منى تبدو بوضوح جزءاً من التيار المصري الأساسي، على الرغم من نقابها. فهي برهان حي على أن الانبعاث الإسلامي قد تجاوز حدود الطبقة

الاجتماعية. وهي تمثل نقيضاً للنظرية الغربية التقليدية التي تفيد أن الحجاب يحجز، ويقيد، ويحبس النساء في سجن فكري. وقد أسرتني منى كثيراً وأثارت اهتمامي من حيث كونها نموذجاً للمرأة الإسلامية الجديدة التي تجمع بين التقاليد، والثقافة، والدين، والحداثة، في أسلوب حياة واحد. وعندما دنوت من حافة السرير متأهبة لطرح المجموعة الثانية من أسئلتي، سمعنا اضطراباً وجلبة في حجرة الجلوس، وفتحت منى باب حجرة النوم، وجعلنا نرقب النجم الجذاب يخطر داخلاً المنزل، بينما اندفع الطلبة ليحتلوا أماكنهم مترقبين العرض الوشيك.

اتخذ الشيخ عمر عبد الكافي مجلسه بين الشباب المجتمعين في حجرة الجلوس، وخيم الصمت على المنزل، وشخصت كل العيون إليه. لم يكن عبد الكافي شيخاً عادياً، بل كان أسطورة عند معظم الطلبة المجتمعين في الدرس. فهو معروف بلقب «شيخ النجوم»، بسبب عشرات الممثلات اللواتي التزمن على يديه، بعد أن تخلين عن مهنتهن على الشاشة الفضية، وارتدين الحجاب. ويلقب أيضاً بـ «شيخ النساء»، بسبب العدد الكبير من النساء المنتميات إلى الشريحة المهنية العليا، وربات البيوت اللواتي تفقهن عنده وعلمهن، فتغيرت حياتهن بعد حضور دروسه الدينية.

لكن عبد الكافي تعرض للتشهير بسبب أحكامه... فقد أعلن ذات مرة أنه لا ينبغي للمسلمين أن يلقوا على المسيحيين بالتحية الإسلامية. كما صادق أيضاً على حكم الإعدام الديني الذي أصدره آية الله الخميني ضد الكاتب البريطاني سلمان رشدي، لتجديفه على الله في كتابه «آيات شيطانية». وقال عبد الكافي إنه مستعد لتنفيذ هذه الفتوى بنفسه، وقتل المؤلف إذا أتيحت له الفرصة.

ومع ذلك، وعلى الرغم من الجدل الذي أحاط بعبد الكافي، كان

هناك شيء آخر فيه يعرفه الجميع، ولكنهم يتهيبون من مناقشته صراحة، في صحبة النخبة من أهل السلطة في البلاد. وذلك أن الشيخ كان ممنوعاً من الوعظ رسمياً، إذ وضعته الدولة في فئة «المتطرفين»، وما عاد يرى علانية، كما أن الاتصال به يقتضي الوصول إلى رقم لخط هاتف سري في منزله، وهو خط حرص على أن يظل بعيداً عن وسائل التنصت من قبل إدارة مخابرات الدولة.

في أوائل الستينات، كانت خطب الجمعة التي يلقيها بالدقي، وهو حي راق غير بعيد عن منزلي في الزمالك، تجتذب عدداً هائلاً من المصلين، لدرجة تضطر فيها الشرطة إلى تحويل حركة المرور لتفسح المجال لعشرات الألوف من الحضور الذين كانوا يستمعون إليه من الشوارع المحيطة بمسجد أسد بن الفرات. وكان ما يهم الدولة من ذلك أن تأثيره قد خرج عن حدود السيطرة، إذ كان يصل إلى مراكز السلطة ذاتها. فمن بين الموالين له وزير داخلية سابق، ولم تكن زوجات الضباط ذوي الرتب العالية يشبعن من الاستماع إليه، وكانت مشاهير النساء يعلن الإخلاص له في الصحف والمجلات، كأنما هو زعيم طائفة أو نجم من نجوم «الروك».

وظل السحر الذي أصاب به علية القوم يزداد صداه المدوي على مدى شطر كبير من سنة 1993 ، على صفحات إحدى مجلات الإثارة اليسارية، إلى أن باتت الهستريا آخر الأمر تستدعي اتخاذ إجراء ما. ولقبته المجلة بلقب «نجم الإرهاب المبتسم»، وشبهته بالشيخ عمر عبد الرحمن، الزعيم الروحي «للجماعة الإسلامية» المتهم بتفجير مركز التجارة العالمية. وبعد أربعة عشر عدداً تطعن في عبد الكافي، وصلت المجلة آخر الأمر إلى النتيجة المرجوة. ففي نيسان / أبريل 1994، وتحت ضغط لتهدئة النقاش العام، حظرت الدولة على الشيخ إلقاء خطبه ومواعظه في المساجد وفي التلفزيون.

وها هو هنا بشحمه ولحمه، وقد أصبح أكثر هدوءاً وجلالاً، وأكثر واقعية نوعاً ما مما كانه في أيام مجده، عندما كانت خطبه العنيفة المسهبة تلهب مشاعر الجماهير في شوارع الدقي.

وقال عبد الكافي يسأل الحاضرين: ما هي المشكلة التي تخيف الشباب، ذكوراً وإناثاً، من الدين؟ يقولون إن في الدين قيوداً: لا تنظر إلى زميلتك، لا تصافحها، ولا تخرج في رحلات مختلطة.. إذا كنا نعتقد أن الدين حرية وليس قيوداً، فلن يكون من الصعب أن نتبعه».

وظل عبد الكافي يتحدث أكثر من ساعتين إلى أن أشبع نهم المستمعين إليه، ثم غادر المنزل بمثل السرعة التي دخله بها. وكان من الواضح أن تحفظه جزء من شخصيته الملغزة الآسرة، ولم يكن من عادته وأسلوبه أن يمضي الوقت يشرب الشاي مع أتباعه ويخوض في حديث مبتذل. وسألت عدداً من النساء عن رأيهن في درسه، ولماذا كانت كلماته تجتذبهن. فأجابت شابة قائلة: «إنه الشيخ الوحيد الذي يربط الدين بالحياة الحديثة» وكانت هذه قد اتبعت عبد الكافي منذ أيامه في الدقي، ثم أضافت: «سألته ذات مرة هل يمكنني أن أواصل الذهاب إلى الحانة وأن أشرب، فقال لي: لن أقول لك ماذا تفعلين، ولكن لو رآك النبي ﷺ في الحانة أتراه سيكون سعيداً؟ وعرفت ماهية الجواب، حتى لو كان من الصعب على المرء أن لا يذهب إلى حانة».

وكانت المرأة الوحيدة التي وافقت على أن تعطيني اسمها هي ديلجين، وهي عارضة أزياء أنيقة، وابنة دبلوماسي كردي تعلم في السوربون. تركت ديلجين عرض الأزياء قبل سنة وأصبحت ملتزمة بالحياة الدينية بعد أن اكتشفت عبد الكافي عن طريق جماعة من النساء الموسرات اللواتي دعونه إلى منازلهن لإلقاء دروس دينية سرية، وقد منحها إيمانها، ولا سيما حجابها، حرية جديدة.

وقالت ديلجين تفضي إليّ: «أصدقائي يتصرفون كأنني أحتضر لأنني تحجبت، غير أني تلقيت أربعة عروض زواج في السنة الأخيرة. ويزداد عدد الفتيات اللواتي يرتدين الحجاب الآن شيئاً فشيئاً، على الرغم من معارضة الأهل. وهن يفعلن هذا للسبب ذاته الذي حملني عليه: عندما أضع الحجاب على رأسي أضع فيه عقلي أيضاً».

وعندما منعت السلطات عبد الكافي، كانت تأمل بانحسار نفوذه بسرعة، اعتماداً على حكمة «بعيد عن العين، بعيد عن القلب». ولكن رسالة عبد الكافي، مثل رسالة الكثيرين من كبار الشخصيات الدينية التي نالت شهرة واسعة النطاق في أوائل التسعينات، ما زالت حية بين أتباعه، فكانوا يهدون الآخرين بإذاعة خطبه ومواعظه المسجلة على شريط، والتي يبلغ عددها ألفاً، رغم أنها محظورة رسمياً.

وتواصلت السلسلة ونشر المصريون الذين يتوافر لديهم المال والموارد حماسته الدينية. وتخلت نجمات السينما، والراقصات، ومذيعات التلفزيون، عن شهرتهن وثروتهن من أجل القضية. فافتتحت واحدة ميتماً لتكفر عن خطايا حياتها السابقة، وتخلت أخرى عن النجومية لتلقي دروسها الدينية الخاصة بها للنساء الثريات، وتبرعت ممثلة ثالثة بشقة تبلغ قيمتها مئة ألف جنيه، وأسست عيادة طبية للفقراء. وكانت الهداية في صفوف المشاهير قد بلغت من الانتشار حداً جعل المنتقدين العلمانيين يتهمون عبد الكافي بأنه ينتمي إلى شبكة دولية من المتطرفين الذين دفعوا للنساء الثريات الأموال ليتحجبن. وكان هذا دفاعهم الوحيد، دفاعاً ينضح بروح الانتقام لا العقل. لقد كانت النساء مليونيرات من قبل، فلم تغويهن رشاوى أمثال عبد الكافي؟

وبينما ظلت بقعة الضوء مثبتة على أتباع عبد الكافي الأكثر بريقاً، كان الآلاف من المصريين يعيدون بناء حياتهم وراء الكواليس، بعد تعرضهم هم

لـ«الدكتور عمر» كما كان يدعي من باب التأثر من قبل محبيه ومريديه. وافتتحت سوزان، وهي امرأة واثقة من نفسها، في منتصف العمر، تحمل الدكتوراه في البيولوجيا، ومتزوجة من محام ثري، مدرسة لتحفيظ القرآن للأطفال في مصر الجديدة. والتقيت بسوزان عندما وصلت إلى القاهرة أول مرة عن طريق ابنها، وهو طالب في الجامعة الأمريكية كان يبدو كطالب قادم لتوه من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، في فترة الستينات. فشعره الجعد مرتب على شكل خطوط متتابعة كصفوف أكواز الذرة، وهو طراز قلما يراه المرء في مصر، ومسلكه اللطيف، التأملي، يناقض تناقضاً صارخاً مع النغم النشاز المسيطر على أكثرية أترابه الهازلين الصاخبين. وفي ذلك الوقت، كانت سوزان تحضر دروس عبد الكافي بالدقي بانتظام، على الرغم من الملاحظات البارعة والساخرة من جانب ولدها، ومن جانب زوجها «المتغربين» بالقدر ذاته. وكنت كلما سألت ابن سوزان عن أنشطتها ضحك، وقلّب عينيه وقال: «أرجوك، لا تدعيها تبدأ كل هذا الكلام الديني».

وكنت في الحقيقة قد هتفت لسوازن في سنة 1998 لأسألها عن حال مدرستها. وأبلغتني أن عدد الطلاب المسجلين قد ازداد نتيجة لحملة إعلانية صغيرة قامت بها، كما استأجرت حجرة ملاصقة لفصل الدراسة الرئيسي لتقديم دورات في مواد أخرى إلى جانب الدين. وتلقت المدرسة الموافقة الرسمية من المشايخ في الأزهر. وأدت الموافقة إلى الحصول على منحة ضئيلة من الدولة للمدرسات. ولكن معظم رواتب هؤلاء، وإيجار المبنى، وكل النفقات الأخرى كانت تغطى من نقود سوزان من وظيفتها في مستشفى قريب، ومن راتب زوجها. ولم يكن زوجها يشجع نشاطها الديني، ولكنه لم يقف أبداً في طريق معتقداتها، حتى ولو كان ذلك على حسابه الخاص. وعندما بدأت سوزان في اتباع عبد الكافي، أخذت تصوم وتصلي بتواتر أكبر، وخففت عدد الوجبات التي كانت تحضرها لأسرتها.

وقالت لي سوزان عصر يوم حار من أيام حزيران / يونيو: «لقد أردت أن أعطي شيئاً لديني، مقابل ما أتيح لي من هداية على يد الدكتور عبد الكافي، وكل هذا بسببه». كانت تقول لي هذا مزهوة بينما تطوف بي في جولة داخل المدرسة. لقد وجدت سوزان سبيلها إلى الدين بطريقة مماثلة إلى حد بعيد لتلك التي وجدها من خلالها كثير من المصريين الآخرين من جيلها. وحين هاجر الآلاف إلى دول الخليج ليحظوا بأجور أعلى بعشرة أضعاف مما هي عليها في مصر، تعرضوا لتأثير مجتمعات أكثر تديناً ومحافظة من مجتمعاتهم. ففي العربية السعودية، مثلاً، يعد الحجاب إلزامياً. وتعد المعايير الاجتماعية بين الرجال والنساء في منطقة الخليج بوجه عام، أكثر تقييداً مما هي في مصر، ومعظم الأنشطة يدور حول الدين. وعندما عاش المصريون ضمن هذه المجتمعات، أصبحوا هم أيضاً أكثر تديناً.

انجلبت سوزان إلى الدين عندما كان زوجها يعمل في الكويت في الثمانينات، وكان أخوها قد مات لتوه، واستمدت العزاء الروحي من امرأة كويتية شجعتها على تعلم القرآن. ولم يسبق لها أبداً أن قرأت كتاب المسلمين المقدس، وألهمتها التجربة أن تكرس حياتها للإسلام. فأخذت ترتدي الحجاب، وعندما عادت إلى مصر واصلت أنشطتها الدينية إلى أن عثرت على الشيخ عمر عبد الكافي. وقالت لي في نفس اللحظة: «أحب ديني وبلادي». وكانت تكشف بذلك عن ارتباط قوي بين الإسلام والوطنية المصرية، من الواضح أنها طورته في عقلها.

تركت سوزان عصر ذلك اليوم وهي في حالة نفسية كئيبة. فالشيخ محمد متولي شعراوي، أحب الشخصيات الدينية إلى قلوب المصريين قد مات لتوه. وعندما كنا نشاهد لقطات سابقة من حياة الشيخ الطويلة على جهاز التلفزيون في المدرسة، انفجرت باكية: «لقد كان رجلاً صالحاً، فمثله لا يأتي إلاَّ مرة واحدة في كل قرن من الزمان».

يتحمل كل من الشيخ شعراوي، والشيخ عبد الكافي إلى حد بعيد مسؤولية صياغة الصورة الجديدة للمرأة الإسلامية المثالية في مصر. وقد قامت دروسهما الدينية، وخطبهما أيام الجمعة، وبرامجهما في التلفزيون، وكتبهما الموزعة على نطاق واسع، بدور الموجه والمرشد، ولا سيما لنساء الطبقة الوسطى المدينية، اللواتي رجعن، على مدى السنوات العشرين الأخيرة، إلى الإسلام لإعادة تحديد واجباتهن في الأسرة ووضعهن في المجتمع. وقد بدأ الشيخ شعراوي خطبه المتلفزة الأولى في السبعينات لتوسيع نطاق متغيرات المرأة الإسلامية لتتم الاستجابة لمطالب العالم الحديث. ولأول مرة في مصر، يفرض الاقتصاد الذي يعاني من الركود، على المرأة في المدينة ضرورة العمل؛ إذ ما عاد في وسع الرجل أن يكون المعيل الوحيد للأسرة. كان الشعراوي من أوائل القادة الإسلاميين المعاصرين الذين وسعوا تعريف المرأة الإسلامية، من تلك المرأة التي ينبغي لها أن تكافح لتمسك بالأصالة ثقافياً، إلى تلك المؤهلة للتمتع بالحريات المدنية والحقوق المكفولة للرجال أيضاً. ويقول الشعراوي إن النساء ينبغي أن يكن متساويات مع الرجال، ولكن لا ينبغي لهن أبداً أن يتجاوزن الخط الذي يفصل ويميز بين الجنسين، ولا سيما في شؤون الأسرة، وكانت رسالة عبد الكافي العامة وأهدافه مماثلة: فالمرأة تستطيع أن تكون عصرية وإسلامية في الوقت ذاته.

ركز إسلاميو مصر جلَّ انتباههم على النساء في النضال من أجل إقامة مجتمع إسلامي. وبالنسبة إليهم، لا يدور النقاش الوطني بين التراث والحداثة، بل حول كيفية تحديد حدود ملائمة للحداثة. والكثير من إسلاميي مصر يعتقدون أن المرأة ينبغي أن يكون لها الحق في التعليم والتوظيف، غير أنهم يعتقدون أيضاً أن الأولوية يجب أن تكون للأسرة. وليس همهم الأول إقامة توازن في السلطة بين الرجال والنساء، ولكن كيف يتم الحفاظ على التفاعل بين الجنسين الذي يكفل استمرار النسل وديمومة الوجود لوحدة الأسرة الإسلامية.

وكما هو الحال في كثير من المجتمعات الغربية، تتمثل المسألة المركزية عند إسلاميي مصر في كيفية عقد مصالحة بين حقوق المرأة الثابتة الأصيلة وبين المسؤوليات في الحياة التي لا يستطيع أن ينهض بها سواها. والنساء يلعبن أيضاً دوراً حيوياً بصفتهن «حاملات الثقافة»، أي المفتاح إلى تخليد العقيدة والإيمان. وبالنسبة إلى الإسلاميين يعتبر التهديد الأساسي من جانب الغرب ثقافياً، لا سياسياً واقتصادياً. وحماية الواجبات والأدوار التقليدية للمرأة هي المفتاح الذي يضمن بقاء الإسلام نفسه في عالم يتأثر على نحو مطرد بقيم الغرب[1].

الارتباط بين الإسلام والحداثة ليس بجديد بالنسبة للحركة النسائية في مصر، بل تطور تطوراً دراماياً مؤثراً ليلائم الحقب الاقتصادية المتغيرة. ففي السبعينات، عندما انضمت النساء إلى القوة العاملة بأعداد أكبر، أخذ الفصل الذي كان يوجد ذات يوم بين النساء العلمانيات المهنيات من ناحية، والنساء التقليديات المتدينات اللاتي يملن إلى البقاء في المنزل، من ناحية أخرى، أخذ يتلاشى. وفجأة ازدادت أعداد المحجبات في دوائر الحكومة. وعلى النحو ذاته مارس أساتذة الجامعات، والمحامون، والأطباء، النشاط الديني في الجامعات والنقابات، ومن خلال قنوات أقل رسمية. وبتوسيع حدود النقاش الديني، وإفساح مجال للحركة النسوية ضمن البرنامج الإسلامي، نجح الناشطون الإسلاميون في اجتذاب نساء الطبقة الوسطى والعليا، اللواتي دفعت بهن القوى الاقتصادية والاجتماعية عملياً إلى خارج المعسكر الديني.

وكانت الصحوة الدينية، في الوقت ذاته، تعرض للنساء التقليديات حياة اجتماعية مقبولة خارج أسوار العزلة والاعتزال في منازلهن. وفي التسعينات، كان هناك تقليديات ممن كن مرتبطات بالمنزل فيما سلف، يتجمعن مع صديقات الأسرة لحضور الدروس في المساجد في ساعات العصر، تماماً مثلما يحدث للمهنيات الشابات من الطبقتين الوسطى والعليا، اللاتي يحضرن دروس

الدين بعد الظهر بعد العودة من العمل. وقد أصبحت هذه التجمعات المرتجلة أمراً عادياً ومألوفاً في كثير من المساجد، بما في ذلك المسجد المركزي في الأزهر خلال وقت الغذاء، حيث تجلس النساء في حلقات على الأرض، يأكلن «ساندويتشات» الطماطم والخيار في انتظار الخطب التي يلقيها المشايخ المحليون.

ظلت زينب الغزالي، التي أسست جمعية النساء المسلمات سنة 1937، وانضمت فيما بعد إلى حسن البنا والإخوان المسلمين، تعمل لعقود من الزمان على إدماج دوري المرأة بصفتها زوجة متفانية وأمّاً حانية، وبصفتها مؤمنة صادقة. وكانت تقيم في كل أسبوع حلقات دراسية للنساء في المساجد، وجلسات منظمة في بيتها للكثير من المهنيات وطالبات الجامعة. غير أنها وسعت أيضاً الأنموذج للنساء عن طريق مثالها الخاص بحكم كونها المقابل للبنا. وكانت تستقبل سياسيين نافذين في منزلها؛ وعارضت علانية تعاون الإخوان المسلمين مع ناصر والضباط الأحرار بعد ثورة 1952؛ وقامت هي وشبكتها النسائية بدور همزة الوصل بين الإخوان والعالم الخارجي سنة 1954، بعد أن زج في السجن بالكثير من قادة الجمعية. واعتقلت زينب الغزالي سنة 1965 وحكم عليها في البداية بالإعدام بسبب أنشطتها السياسية، ثم خفض الحكم إلى السجن المؤبد. ولكن أطلق سراحها سنة 1971، وكان ذلك جزءاً من لفتة الرئيس السادات التي عبر بها عن حسن النية تجاه الإخوان المسلمين.

كانت زينب الغزالي متقدمة على عصرها في اعتقادها أن من الممكن أن توجد حقوق للمرأة داخل المجتمعات الإسلامية، وهي نظرة لم يجر التعبير عنها في صفوف أصحاب الحركة النسوية الإسلامية إلاّ الآن. وكانت تعتقد أن الإسلام قد قدم للمرأة «كل شيء ـ الحرية، والحقوق الاقتصادية، والحقوق السياسية، والحقوق الاجتماعية، والحقوق العامة والخاصة»، على الرغم من أن هذه الحقوق لم تكن ظاهرة بجلاء في المجتمعات الإسلامية[2].

وكانت تؤكد أيضاً على دور النساء الحيوي في الحركة الإسلامية: «النساء... جزء أساسي في الدعوة الإسلامية... فهن اللواتي يبنين نوعية الرجال الذين نحتاج إليهم لملء صفوف الدعوة الإسلامية. ولذلك لا بد أن تكون المرأة متعلمة جيداً، ومثقفة، وعارفة بقواعد الكتاب والسنة، ومطلعة على السياسة العالمية. ولماذا نحن [المسلمون] متخلفون، ولماذا لا نمتلك التكنولوجيا... فالإسلام لا يحظر على المرأة أن تشارك بنشاط وفاعلية في الحياة العامة، ولا يمنعها من العمل ودخول معترك السياسة، والتعبير عن رأيها، أو أن تكون أي شيء، ما دام ذلك لا يتعارض مع واجبها الأول كأمّ، وأول من يدرب أطفالها على الدعوة الإسلامية»[3].

والآن، بعد أن أصبحت زينب الغزالي ضعيفة واهنة، تعيش مع عدد قليل من قريباتها في منزلها بمصر الجديدة، تجد العزاء في رؤية جهود حملة جهادها التي دامت نصف قرن من الزمان تؤتي ثمارها. وما زالت، وهي في الثانية والثمانين، تستقبل الزوار، على أن تتم اللقاءات بعيد معالجتها الصباحية عندما تكون في أحسن حالات يقظتها. وعندما زرت زينب الغزالي، كانت ترتدي غطاء رأسها الأبيض المميز، ونظارتين سوداوين سميكتين. وكانت تبعث الحياة في أيامها الرومانسية، كناشطة إلى جانب حسن البنا، حتى عندما تجهد نفسها لتتذكر التواريخ، والأحداث، والنوادر. وقالت لي: «والآن تجدون شابات يوجهن العائلات إلى الإسلام. ومستقبل الحركة الإسلامية مضمون لأن شباب اليوم يمسك بزمام القيادة. لقد كنت دائماً أشجع النساء على ارتداء الحجاب، لأن من المهم أن تكون النساء متدينات. وعن طريقهن يجد الرجال الإسلام، وهذا يؤثر في الأسرة فتغدو متدينة».

تطور الخطاب المتعلق بالحركة النسوية داخل الإسلام منذ أيام زينب الغزالي، وتعرض لإعادة فحص من قبل الناشطين عبر الطيف السياسي. وأوصلت هبة رؤوف عزت، وهي محاضرة إسلامية بجامعة القاهرة، وتحضر

الآن لشهادة الدكتوراه في أوكسفورد، النقاش إلى ذرى جديدة، محتجة بأن حقوق المرأة كانت موجودة في النصوص الإسلامية والشريعة الإسلامية خلال أيام النبي ﷺ. وتستند حجج هبة رؤوف عزت إلى إقرارها بأن الإسلام وصفة علاجية للمرأة الحديثة، بمقدار ما تستند إلى إدانتها لأفكار الحركة النسوية الغربية. وهي ترفض بعناد المفهوم الغربي للحركة النسوية، محتجة بأنه حاصر المرأة ضمن أدوار ضيقة، وأعطاها خيارات أقل، وابتدع الفصل بين الجنسين. ويضاف إلى ذلك، كما تقول هبة رؤوف عزت، أن مما ينطوي عليه الأسلوب الغربي في تحرير المرأة تحدي الكنيسة بحكم كونها المنظم للمعايير الاجتماعية، مع الأخذ بعين الاعتبار وجود التناقضات بين الحركة النسوية والكنيسة في أمور مثل الإجهاض والطلاق وتحديد النسل.

وعلى العكس من ذلك، تتحول إلى النصوص الإسلامية عندما تحتج بأن حقوق المرأة كانت مكفولة منذ تأسيس الإسلام في القرن السابع. فاللغة في القرآن تشير إلى البشرية باسم «الإنسان» الذي يعني في العربية شخصاً أو كائناً بشرياً، ويمكن أن يكون إمّا ذكراً وإمّا أنثى. وكثيراً ما تستشهد هبة رؤوف عزت، في كتابها «المرأة والعمل السياسي: وجهة نظر إسلامية»، بآيات من القرآن لتؤيد حجتها. ومن استشهاداتها ما يلي: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]. وعلى الرغم من أن هبة رؤوف عزت معروفة جيداً في الأوساط الفكرية، وقد كتبت في هذا الموضوع كتابات مستفيضة، فما زال من الضروري أن يتشرب المجتمع بوجه عام خطتها في التفكير والتعليل.

وكما هو الحال في معظم المجتمعات الإسلامية اليوم، يقدم الحجاب والرمزية المحيطة به أكثر الوسائل بروزاً وظهوراً في صدد مناقشة حقوق المرأة. وإذا كان دور المرأة يوفر إحدى الحلبات الرئيسية للصراع بين الإسلاميين والعلمانيين اليوم، فمن الواضح أن الحجاب، والخمار، والنقاب (وهي أنواع

الحجاب التي تزداد محافظة على التوالي، عند النساء المصريات)، تمثل غنائم الحرب. لقد كان الإصلاحيون منذ مستهل القرن، مثل محرر المرأة البارز قاسم أمين، يعارضون الحجاب، وكانت النساء المصريات في العشرينيات أول من دعا في العالم العربي إلى إلغائه بأكمله. وفي أوائل الخمسينات، كان تحرير المرأة قد حقق ظهوره العام الأول، مع لعب المرأة المزيد من الأدوار العامة وتبني الأزياء ذات الطراز الغربي: فمع مرور الوقت أصبحت التنورات القصيرة أكثر شيوعاً من غطاء الرأس. وكانت النساء إذا سئلن هل ينتهك اللباس الغربي حرمة مبادئ الدين، أكدن على أن أزياءهن ليست مخالفة للإسلام. وفي الحقيقة، كانت حجتهن أن النساء لم ينتظر منهن ارتداء الحجاب في صدر الإسلام، باستثناء أزواج النبي ﷺ اللواتي كن يعشن بالقرب من المسجد، وكن يتعرضن لمقابلة الرجال الذين يحضرون الصلاة. وفيما بين الثلاثينات والسبعينات كانت أكثرية النساء يتقلدن أدواراً عامة جديدة ويرفضن الأشكال المنمطة التقليدية.

وحظي ارتداء الحجاب، بتأييد واسع في أوائل السبعينات، وذلك رداً على التأثير الغربي المتنامي واستجابة متبادلة لتجديد الهوية الإسلامية. وكانت الجماعات الإسلامية في الجامعات، التي شجبت القيم والأعراف الغربية وجعلت هدفها النهائي إقامة مجتمع إسلامي، تشجع الطالبات على ارتداء الحجاب. وكان مثل هذا الزي الإسلامي أحد رموز الحركة الجديدة. إذ كان يشير إلى الاتساق والتضامن، ويفصل فصلاً واضحاً بين الطالبات داخل الحركة عمن هن خارجها. وناضلت الجماعات الإسلامية نضالاً شاقاً في أوقات معينة ضد الإداريين في الجامعة من أجل السماح للطالبات بارتداء النقاب ـ وهو ممارسة كانت السلطات تعارضها. وعندما حظر على الشابات دخول الحرم الجامعي بالحجاب الكامل، كان الإسلاميون ينظمون في كثير من الأحيان احتجاجات دفاعاً عنهن. ونظراً للدور القيادي الذي تلعبه داخل المجتمع

الجماعات الإسلامية في الحرم الجامعي، كان من الطبيعي أن يتبع الكثير من عامة الناس قيادتهم بسرعة. وأصبح التحجب ممارسة سائدة ومنتشرة. ففي أوائل التسعينات بدأت تلميذات المدارس بارتداء الحجاب بأعداد أكبر بكثير من أي وقت مضى. وأصدر وزير التربية قراراً في سنة 1994 يقضي بأن تمتنع الفتيات عن ارتداء الحجاب في المدارس الابتدائية، وأطلق هذا القرار العنان لكفاح على صعيد الأمة كان يتخمر تحت السطح. ونشبت مصادمات بين الآباء الذين أصروا على أن تحضر بناتهم فصول الدراسة بالحجاب، والمعلمين الذين كانوا يشعرون أن من واجبهم الامتثال لقرار الحكومة. وطرد المسؤولون بعض الطالبات في القاهرة والمدن الأخرى، اللواتي رفضن الإذعان للمطلب الجديد. ورفع عدد من الآباء والأمهات قضايا ضد وزير التربية، متحدين قراره. أما الدولة فقد طردت، بدورها، المعلمين الذين كانوا يشجعون على ارتداء الحجاب في المدارس الابتدائية، وألغيت من كتب التربية الدينية الرسوم التي تصور تلميذات يرتدين الحجاب.

أثار تصرف الدولة عاصفة من النقد من جانب الإسلاميين. وواجهت لجنة الفتوى في الأزهر الوزير علانية، محتجة بأن تغطية كل شيء ما عدا يدي الفتاة وقدميها أمر ضروري بعد البلوغ، وفقاً للنصوص الإسلامية. وفي النهاية، تراجع وزير التربية حسين كمال بهاء الدين عن قراره، وأعاد صياغة القرار ليقول إن بإمكان بنات المدارس ارتداء الحجاب، إذا كان لديهن إذن من الوالدين في صورة مذكرة من آبائهن. وعلى كل حال، فحتى هذا المطلب لم يفرض أبداً، إذ كانت أغلبية البنات يحضرن إلى المدرسة محجبات، وبدا من الأمور غير العملية أن تطلب مذكرات خطية من آلاف الآباء. لكنه ظفر بانتصار متأخر عن وقته، عندما أقرت المحاكم حظراً ثانياً كان قد أصدره، يمنع النقاب الكامل في المدارس والجامعات.

وكنت أتعرض، خلال سنواتي في مصر، لطوفان من التفسيرات من كل

جانب لارتداء النساء الحجاب. وكانت التفسيرات الثلاثة المفضلة عند العلمانيين، بمن فيهم أحد الوزراء، هي أولاً، أن النساء كن أفقر من أن يشترين «الشامبو» أو يذهبن إلى حلاق السيدات. وبالتالي فإن تغطية الشعر تمثل حلاً رخيصاً وسهلاً. والثاني، أن النساء يشعرن بالإحباط من جراء أدوارهن كربات منازل، وقد تحولن إلى الإسلام بدافع السأم. فما إن يرتدين الحجاب حتى يكتسبن على الفور وضعاً جديداً في الحياة كنساء ذوات دين. والثالث، أن أزواج النساء يرغمونهن على ارتداء الحجاب كوسيلة للتحكم والهيمنة في مجتمع مقموع جنسياً.

ولكن النساء اللواتي اتبعن عبد الكافي، أو مشايخ آخرين مثله، يكذبن هذه الأساطير. فقد كنّ بلا ريب غنيات بما يكفي لشراء «الشامبو» أو زيارة «الكوافير». والكثيرات منهن متعلمات في الجامعة وفي وسعهن الحصول على وظائف لو رغبن، كما يتمتعن بمكانة مرموقة في المجتمع المصري. والدليل تثبته عضويتهن في النوادي الراقية وملابسهن الفاخرة، ورحلاتهن المتواترة إلى الخارج. وفي كثير من الحالات، كان أزواجهن الذين يلعبون أدواراً إيجابية في حياتهن يعترضون على غطاء الرأس ويفضلون أن تبدي زوجاتهن شعورهن الناعمة المهفهفة وأجسادهن الرشيقة التي زادت حسنها نوادي الصحة البدنية.

وعندما كان المشايخ يحضرون لإلقاء الدروس في منازلهن، أو على الأقل، يظهرون في برامج التلفزيون الشعبية، فإنهم يساعدون على إنشاء شبكات غير رسمية، بين النساء اللاتي كن لولا ذلك معزولات ووحيدات في بحثهن عن آخر الأوامر والنواحي الدينية، كما أن السهولة المتزايدة في الوصول إلى أعضاء هيئة العلماء، الذين ما عادوا شخصيات أسطورية متقوقعة داخل قاعات الأزهر الكبرى، تشكل فرقاً له شأنه فيما يتعلق بانتشار وسرعة الأسلمة بين النساء المصريات. وفي حالة عبد الكافي، فقد تطورت شهرته وذيوع صيته بسرعة بين الأغنياء لأنه كان واحداً منهم. فكثيراً ما كان يوجه أتباعه في نادي

الرماية المقتصر على النخبة من المهندسين، وهو يرشف الشاي في الحدائق الممتدة على مد البصر، علاوة على أنه يسكن مجمعاً من الشقق الأنيقة مسقوف بالقرميد بالدقي ولا يحتمل تكاليفه إلاّ الأثرياء. كما يقتني خزانة ملابس من أحدث الأزياء، ويرتدي نظارات من أشهر الماركات العالمية. وفي رده على النقد القائل إن مظهره ينطوي على التفاخر ولفت الأنظار، قال بسخرية وازدراء ذات مرة: «هل يترتب عليّ أن أرتدي جلابية ممزقة؟ وأي ضير في شخصية دينية ترتدي ثياباً لائقة وتبدو أنيقة؟».

وقد كان عبد الكافي ذرائعياً (براغماتياً). فقد رفض أن تجمده أفكاره الدينية في زمن محدد. ففي أواخر التسعينات تعمد التخلي عن الخطب اللاذعة التي كان يلقيها في الدقي، وتبين له أن بعض تعليقاته التي كانت تطلق شرارة الغضب آنئذ ما عادت ملائمة في أيام ما بعد حركات العنف المسلح في أواخر التسعينات. وعندما لقيته أول مرة، سنة 1994، رفض أن ينظر في عيني، وجرت المقابلة كلها وعبد الكافي يثبت عينيه فوق جبهتي، على باب مكتبه. وفي مثل لمح البصر، وقعت في شرك ارتعاشة عصبية، وتساءلت هل ينبغي لي أن أنظر في عينيه المشاكستين، أم إلى الأرض، أم إلى بقعة أكثر حياداً. ومما زاد التوتر لغة جسده التي وضحت أن كل سؤال كان أكثر مما ينبغي.

وأثبت لقاؤنا الثاني في سنة 1997 أن عبد الكافي تكيف مع الظروف المتغيرة. وكان هادئاً، حسن المظهر، ومستعداً للحديث بحرية حول موضوعات حساسة. وكان قد هذب لحيته الرمادية وارتدى قميصاً أبيض منشىٰ إلى حد الكمال، وسروالاً رمادياً. أما لهجة الإلحاح الكامنة وراء كل كلمة نطق بها ذات مرة، فقد أفسحت المجال لنبرة تأملية، كأنما شارك في ثورة، وبعد مرور الحدث وهدوء الحماسة والعاطفة بات مستعداً لإجراء تصحيحي. ونظر إلي نظرة مباشرة ثابتة في عيني، وحاول أن يعدل بصورة مقنعة الأفكار التي انتهت به إلى النفي.

وبدأ المحادثة بشكاوى من فهم الأمريكيين السلبي للمسلمين. وقال لي إنه كان قد انضم إلى حملة لكتابة عريضة مع مشايخ في الولايات المتحدة للاحتجاج على قصة في صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» تتعلق باضطهاد المسيحيين في مصر. وناولني نسخة من القصة. قرأتها ووافقت على أن المراسل الذي يتخذ من القاهرة مركزاً له، قد بالغ ليس في مستوى التوتر بين المسلمين والمسيحيين في مصر فحسب، بل في كل أرجاء الشرق الأوسط.

وزودني الموضوع بالمدخل المثالي لمناقشة أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت عبد الكافي رهن الإقامة الجبرية. وكان أعداؤه قد استخدموا تعليقاته حول المسيحيين سلاحاً أساسياً لهم للخروج بحظر الوعظ عليه. وقلت أسأله: «لماذا قلت إن المسيحيين لا ينبغي تحيتهم بتحية الإسلام، (السلام عليكم)؟».

«ليست هذه هي فكرتي، فالنبي ﷺ هو الذي قالها. وهي تحية للمسلمين وحدهم، ولكن هذا لا يعني أن لا تحيي المسيحيين. وهذا هو سبب في أنك تقولين صباح الخير. أما النبي ﷺ فقد اعتاد أن يقول للنصارى: (السلام على من اتبع الهدى)».

وقوطع جوابه بطرق على الباب. وفتح ابن عبد الكافي الصغير الباب قليلاً وحشر رأسه الداكن الصغير من خلاله ليستدعي أباه إلى الشقة المجاورة حيث تعيش الأسرة. واعتذر عبد الكافي وهو يشرح أن زوجته ليست في البيت وأنه يعنى بأطفاله الآن. وعندما عاد بعد بضع دقائق حمل معه صينية شاي وقطع بسكويت. وكان هذا دليلاً آخر على تحول عبد الكافي. وذلك أنني قلما زرت رجلاً في مصر يحضر الشاي بنفسه، فإذا لم يكن هناك زوجة لتقديم الشاي يقوم الأولاد بالمهمة، وإذا لم يكن هناك أولاد يمتنع المضيف عن تقديم الشاي.

وأخذ عبد الكافي يتحدث عن زوجته. كانا قد التقيا سنة 1984 عندما كانت تدرس في كلية الآداب بجامعة القاهرة. وكان الانجذاب متبادلاً:

أرادت أن تتزوج رجل دين. وتأثر عبد الكافي بشبابها وجمالها وحقيقة أن أباها وَجَدَّهَا من علماء الإسلام. وواصلت السيدة عبد الكافي العمل بعد أن تزوجا على الرغم من احتجاجات زوجها. وكان كثير من أساتذة الجامعة والمدرسين المصريين قد غادروا للعمل في الخليج العربي حيث كانوا يكسبون أجوراً أعلى. ورغبت السيدة عبد الكافي بالاستفادة من النقص الذي طرأ على سوق التعليم المحلي. ولم تترك العمل إلاَّ بعد أن أصبحت حاملاً بطفلهما الأول.

وسألت عبد الكافي هل يمكنني أن أتحدث إلى زوجته على انفراد. فقد أردت أن أعرف هل تماثل روايتها للأحداث روايته، وهل أسفت لتخليها عن مهنتها، وكيف تنظر إلى دور المرأة في الإسلام. ورتب لقاءً لي معها، وذات يوم كنا نشرب الشاي معاً في مكتب عبد الكافي. وقالت السيدة عبد الكافي، وهي امرأة طليقة اللسان، تشرح: «قال عمر إنه لا ينبغي للمرأة أن تعمل، وفقاً لتعاليم الإسلام، وقال لي: (لا أستطيع أن أنهي النساء عن العمل وزوجتي تعمل). وتربصت ثلاث سنين قبل أن أتخذ قراراً وآخذ إجازة من الجامعة، ولكني اتخذت قراري بعد ذلك بأنني لن أتابع العمل».

وسألت السيدة عبد الكافي هل كان أبوها سيصرف على تعليمها الجامعي لو كان يعلم أنها لن تعمل أبداً. وقالت تغلق الحديث بسرعة: «بالطبع». وقد شعرت بالإهانة إذ طرحت هذا السؤال: «الإسلام يقول لا ينبغي للنساء أن يكن جاهلات. وأنا أخطط لتسجيل بناتي في أحسن المدارس، ولا يعنيني هل سيعملن في النهاية أم لا». وخلال زيارتي التالية للشيخ عبد الكافي طرحت عليه أسئلة محددة عن دور المرأة في الإسلام.

«هل تعتقد أن على المرأة أن تعمل أم أن عليها أن تمكث في البيت؟».

«إذ كان العمل ضرورياً للمرأة من الوجهة الاقتصادية، فعليها أن تعمل وإلاَّ فلا.. والنساء كالكريستال، ولا يجوز للمرء أن يقسو عليهن، ويجب

احترامهن أكثر من الرجال. وهذا هو جوهر المرأة، لا ما تقوله فكرة الغرب عنها. وهناك حديث يقول إن كل بيت لا بد أن يكون فيه امرأة. وعمل زوجتي في البيت وعنايتها بالأولاد وبكل شيء آخر عمل شاق، إنه وظيفة تدوم 24 ساعة في اليوم».

«لماذا يسميك الناس شيخ النساء؟ هل كان هذا مقصدك؟».

ورد عبد الكافي قائلاً: «لا أعرف كيف حدث هذا، كنت دائماً أعظ الرجال والنساء، حتى قبل أن أمارس الوعظ في الدقي. وربما كان الفرق بيني وبين المشايخ الآخرين هو أنهم يميلون إلى توجيه تعليمهم إلى الرجال. ولكن القرآن يخاطب كلاً من الرجال والنساء. وكان النبي ﷺ يخاطب الرجال والنساء. وأنا أشرح للنساء ما هي حقوقهن في الإسلام».

وقلت أسأله: «ولكن ما سبب اجتذابك لهذه الألوف المؤلفة من المصلين؟».

«أنا أذكر أحد شهور رمضان عندما أقبل 100,000 شخص تقريباً ليسمعوني، وأغلقوا حي الدقي، وأدركت عندئذ أن هناك نوعاً خاصاً من المحبة بيني وبين الناس. وفي اليوم التالي كتبت الصحف تقول إن الإسلاميين يسيطرون على الشوارع.. وليس في وسعي أنا وحدي، أن أقنع كل هؤلاء الناس بأن يحبوني. هناك شيء ما فيّ زرعه الله بتقديره وحكمته».

والنعمة المقدرة من الله هي السبب في أن كثيراً من المشايخ يكرسون أنفسهم للقيام بنشاطهم الذي لا يضعف ولا يلين، وإذا أراد الله شيئاً أصبح واقعاً يجب الدفاع عنه وحمايته مهما كان الثمن. والمصريون يعتقدون اعتقاداً جازماً أن الله يدبر كل الأمور على الأرض من أهونها إلى أكبرها. وعندما تسأل سباكاً هل يستطيع أن يصلح أنبوباً يرشح، أو تسأل موظف البيع عن براد جديد هل يمكن تسليمه، فسيكون الجواب المتوقع: إن شاء الله.. ومحاولة تحديد جواب دقيق تنطوي على الإيحاء بأن الإنسان يملك القدرة على التحكم في مثل

هذه الحوادث، الأمر الذي يعد من قبيل التجديف. والعشرات من النساء اللواتي يتبعن عبد الكافي وقابلتهن يعتقدن أن الله يرسل إشارات إلى أتباعه لا بد لهم من اتباعها إذا ما تم تحديدها والتعرف عليها على الوجه الصحيح. فلم تقنع منى، ومضيفة الدرس في الزمالك، أمها بارتداء الحجاب إلاّ بعد أن واجهت صعوبة في النوم. ونظرت إلى أرقها على أنه إشارة من الله إلى أن حياتها في حالة فوضى وتشوش.

وقالت منى: «أقنعت أمي بالذهاب إلى مكة. ولم تقل لي في ذلك الوقت، ولكنها قد عاهدت ربها. وقالت لربها: إذا قبلتني فسوف يلتمع البرق. وكنا نأكل في مطعم والتمع البرق، وأخذت السماء تمطر. وهي لا تمطر أبداً في مكة. ولم تستطع أمي أن تصدق ذلك. وهذا ما كان حين ارتدت الحجاب».

أما ديلجين، فقد جاءتها الرسالة بينما كانت منهمكة في عملها في عرض الأزياء على الشاطئ: «كنت أقف أثناء التصوير للأزياء مع نساء كن يبدون كالمومسات، وانتابني اكتئاب شديد. ولم أكن أدري لماذا. وأنا ذكية وشكلي جميل، وأصغر معلمة في جامعة المدينة، ولكن توجب عليَّ أن أسائل نفسي ما الذي يسير على غير ما يرام في حياتي؟! وخطر ببالي أن هذا لا بد أن يكون علاقتي مع الله. وعرفت أنني لا بد أن أصبح متدينة. ما الذي يفترض أن أقوله لربي عندما يسألني ما الذي حال بينك وبين الإسلام طيلة هذه المدة؟ أأقول إنه عرضي للأزياء»!!

ووجدت النساء المتدينات من كل الطبقات العزاء في العديد من الممثلات الشهيرات، والراقصات، والمطربات، اللواتي ارتدين الحجاب على مدى السنوات العشر الأخيرة. متخليات عن حياة السحر والفتنة والأضواء، والأجور الضخمة لكي يصبحن مسلمات أفضل. وفي الثقافة المصرية السائدة، تكتسب الممثلات، والمطربات، والنساء الأخريات اللواتي يمارسن النشاط

«الفني» على الملأ، (والحال كذلك بالنسبة للرجال) سمعة رديئة دائماً، لا تختلف كثيراً عن سمعة المومسات الرخيصات. ولذا يكون ارتداء الحجاب وسط النجوم هو صك البراءة الأخير للنساء التقيات. والسينما المصرية، «هوليوود» العالم الناطق بالعربية، تربط مصر ثقافياً ولغوياً بسائر دول الشرق الأوسط بطرق ما كانت لتكون ممكنة أبداً لوحدها. وصناعة الأفلام تعد جزءاً من هوية البلاد الوطنية مثلها مثل الأهرام. وعلى الرغم من أن النجوم يدورون في عالم مثير لا يستطيع أن يسبر غوره أبداً إلاَّ القليل من المصريين، فإنهم يحملون إحساساً بالألفة تتجاوز الهوة القائمة بين عالمهم وعالم المعجبين المبتلين بالفقر. ويشار إلى النجمات في الصحافة وعلى الملأ بأسمائهن الأولى، يسرا، شادية، لوسي، فيفي، ياسمين.

ووجوههن تبرز صارخة من لوحات إعلان هائلة الحجم ترتفع وسط القاهرة، وقدودهن الشهوانية تتكشف من تحت ملابسهن القصيرة عبر الأفق، وتحيط قلب المدينة بهالة مسكرة من الابتذال.

عندما أعلنت مثل هذه النجمات التوبة على الملأ، وندمن على حياة حافلة بالفسوق، والمادية، والغواية، سجلت الحركة الإسلامية انتصاراً أخلاقياً كبيراً. إذ لم يقتصر الأمر على استسلام رموز انحلال وتفسخ الحياة الغربية فحسب، بل تقبلت الممثلات والمغنيات اللواتي تخلين عن مهنتهن، الأدوار التقليدية التي كن يرفضنها ذات يوم علناً، وهي أدوار الأمهات والزوجات التي تستغرق الوقت كله. وقال الشيخ الشعراوي ذات مرة يشرح في مناقشة لموضوع تحجب الممثلات: «ما دام هناك الكثير من الإثم والفساد من حولنا، فالناس يعودون إلى الدين ليخلصوا أنفسهم من الفساد، وعندما يعاني الناس من التناقضات يعتمدون على الدين لحل معضلتهم».

وكان ارتداء الحجاب، بالنسبة إلى بعض النجمات الشهيرات بمثابة عودة إلى هوياتهن الثقافية والدينية، ولم يكن مفارقة راديكالية لجذورهم. وقال عبد

الكافي: «كل هؤلاء الفنانات اللواتي يتركن الفن، يتركنه بإرادتهن، وكل فنانة هي في الأصل امرأة مصرية مسلمة. وبعبارة أخرى، لم يكن ملحدات وأصبحن مؤمنات، ولم يكن كافرات ودخلن في الإسلام. ولكن كن يعانين من نقص في الفهم، أو قصرت عقولهن وقلوبهن في معرفة ما هو الصواب وما هو الخطأ»[4].

ياسمين الخيام، التي كانت ذات مرة نجمة رئيسية في السينما المصرية، مثلاً، هي ابنة الشيخ الحصري، وهو أزهري كان يتولى مسجداً في حي العجوزة بالقاهرة في شارع سمي باسمه تكريماً له. وعندما بدأت ياسمين تتبع الشيخ عبد الكافي (الذي أصبحت ناطقة غير رسمية باسمه) في أوائل التسعينات، أسَّست مركزاً لقراءة القرآن وتحفيظه في مسجد والدها. كما قدمت أيضاً دروس دين مرتين في الأسبوع للنساء في المناطق المجاورة، تضمنت استشارات من مختلف المشايخ.

ومثل كثير من النجمات اللواتي كن أهدافاً لصحافة استولى عليها هاجس تأريخ خطوات عودتهن إلى الإسلام على نحو مطرد، أصبحت ياسمين تجنح إلى العزلة إلى حد ما في أواخر التسعينات، ووقعت حلقة تابعاتها ومريداتها أيضاً أسيرة في شرك جنون الاضطهاد. وذلك أن المضايقة المزعجة المستمرة، والانتقادات والهجمات القاسية المتواصلة، والتهكم والسخرية المريرة من قبل الصحف والمجلات اليسارية، كل ذلك خلف جراحاً عميقة. ولما كانت في منتصف العمر، وعلى ثقة من قرارها باستعادة دينها، فقد باتت تنفر من مناقشة عقائدها أو علاقتها الوثيقة بمشايخ مثل عبد الكافي مع الغرباء. وعندما حضرت درساً من دروسها الدينية سنة 1997، رحبت بي أول الأمر، إذ كانت مقتنعة أنني أخطط لاعتناق الإسلام. ولكن عندما أخذت في تسجيل الخطبة التي كان يلقيها المتحدث الضيف في تلك الأمسية، وهو الشيخ يحيى إسماعيل، الأزهري المحافظ الذي كان زعيماً من زعماء جبهة العلماء المنشقة، أثار جهاز التسجيل

على الفور نوبات عنيفة من الغضب والاتهامات. وافترضت النساء اللواتي يحضرن الدرس الديني أنني أعمل لصالح إدارة المخابرات المصرية أو المخابرات المركزية الأمريكية. وطردت من المسجد، ورفضت ياسمين، التي كانت قد وعدتني بمقابلة خاصة، أن تراني مرة أخرى، مصرة على أنني لا بد أن أكون جاسوسة إسرائيلية! وقال لي عبد الكافي بعد شهور قلائل إن السلطات أصدرت إليه التعليمات بوقف كل اتصال بنجوم ونجمات السينما أو أي نوع من الشخصيات العامة. وبالنسبة له، كان هذا التهديد بمثابة دليل إضافي على أنه أصبح شخصاً منبوذاً في أعين الدولة، الخائفة من نفوذه وجمهوره المتنامي.

وكان عبد الكافي يعيش في حالة الخوف الشديد ذاته الذي عانى منه كثير من الإسلاميين: ففي يوم من الأيام، وبدون سابق إنذار، يمكن أن تصدر السلطات أمراً بزجهم في السجن. كما كان الخوف بالنسبة إلى بعضهم دعوة إلى اختبار المدى الذي يمكن فيه للدولة أن تتحمل الضغوط. وقال إسلامي شاب ظل تحت المراقبة سنوات كثيرة، لفريق المخابرات الذي كان يتابعه في أنحاء القاهرة: «أنام نوماً أفضل في الليل، إذ أعرف أنكم تراقبونني دائماً». ولكن عبد الكافي كان يتعامل مع هاجسه بالتزام الحذر الفائق، فما عاد يدلي بالنصح أبداً لنجمات السينما، حتى ولا على الخط السري الموثوق الذي أغلقه ليتجنب وسائل التنصت الخاصة بمخابرات الدولة.

وعلى أية حال، فإن الإنطباع الذي خلفه عبد الكافي على دائرة واسعة النطاق من النساء اللائي حضرن دروسه ومواعظه الدينية في الدقي، كان له أثر قوي لم يتمكن أحد من محاصرة تبعاته. فقد افتتحت كاميلا العربي، مذيعة التلفزيون السابقة التي طردت من عملها لارتدائها الحجاب، ميتماً حديث الطراز ومثيراً للإعجاب، جهزته بدمى تدخل البهجة على قلوب الأطفال، وأسرة صغيرة مثبتة بالجدران، ومقصف، وملعب صغير. وفي اليوم الذي لقيتها فيه كانت مشغولة على الهاتف تطلب تجهيزات جديدة لإدارة مدرستها. كما وظفت

كادراً من الشابات لرعاية العشرات من الأطفال الذين كانوا يلعبون في حجراتهم ويتناولون غذاءهم في قاعات مزخرفة أكثر ترفاً من معظم المنازل المصرية.

ولم تحضر كاميلا العربي دروس عبد الكافي أبداً، ولكنها كانت تخالط المهتديات به، وفي النهاية أخذت تقدم دروسها الدينية الأسبوعية الخاصة إلى النساء اللاتي يتنقلن في فلك «شيخ النساء». ومن دون أن تتمتع بمزية الثقافة الإسلامية الرسمية، أو التعليم الإسلامي الرسمي، تعتبر كاميلا العربي «إماماً» «مستقلاً» لا يلتزم بأي مؤسسة، وكانت تعرض النصح الذي تصرح بأنه «إسلامي»، ولكنه على الأرجح لن ينجح في اختبار «العلماء»، فهي لا تختلف عن مشايخ الشارع في إمبابة الذين تعاملوا مع الموضوع بسطحية، ونشروا تأويلاتهم الدينية الخاصة بهم، مهما كانت مفرطة في حساسيتها.

وفي درس ألقته كاميلا العربي ذات مساء في المهندسين في منزل واحدة من أتباع عبد الكافي، كان من الواضح أن تحذيراتها المتعلقة بالموت والإغواء والخطيئة تتسم بقدر من الميلودرامية كان كافياً لإحداث الشعور بالصدمة التي عملت على إحداثها. وكانت الصبايا، اللاتي احتشدن في غرفة الجلوس في المنزل، في مكان لا يتسع لهن إلاً في حالة الوقوف، مأخوذات، كالمنومات مغناطيسياً من سحر كلامها، وكثيراً ما كن يطرقن موافقات، كأنما يحضرن جلسة روحانية للشفاء بالإيمان مع واعظ بروتستانتي. وكن يلتمسن التوجيه الديني، ويأخذنه أينما استطعن العثور عليه. ومن الأفضل أن يتلقينه في شقة حديثة مرفهة، ووسط مجموعة مقبولة اجتماعياً من زميلات في نفس العمر. وقالت كاميلا العربي تنصحهن: «هل يملك أي إنسان إشعاراً يضمن متى سوف يموت؟ إذا كان الأمر كذلك، فلتذهبن إلى حفلات التخرج، والرقص، ولتشربن مع الأصدقاء، ولتمارسن اللهو والمرح بكل أنواعه، ولكن أنا أخشى أن يأتي الأجل وأنتن تفعلن هذا، وهذه الأشياء ليست في طاعة الله. هناك الكثير من المنكرات التي تحدث لأننا لا نحافظ على ديننا».

التمييز بين الخير والشر مفتاح كون المرء مسلماً صالحاً، كما كانت كاميلا تقول لجمهور المعجبات بها. وسألتها صبية منهن: «أنا أحب الاستماع إلى أغاني راغب علامة (مطرب شعبي لبناني). هل هذا حرام؟».

وأجابت كاميلا قائلة: «لست أدري أية أغان هذه، ولكن المسألة هي: هل تضيع هذه الأغاني وقتنا أم لا؟ إنها تهدر أوقاتنا حقاً، ولكن إذا قلت لكِ إنها حرام، والموسيقى حرام، والتلفزيون خطأ، وطبق القنوات الفضائية خطأ، وأجهزة الڤيديو لعنة، فلن تحضري دروسي في الدين مرة أخرى».

وعندما سألت إحدى النساء عن أهمية الحجاب، تحدثت كاميلا العربي بثقة عن أعقد القضايا التي تواجه المسلمين في العصر الحديث إثارة للارتباك والنقاش «لقد أمرنا الله بارتداء الحجاب... ارتدين الحجاب حتى ولو كنتن غير مقتنعات، لأن من الممكن أن يتوفاكن الله قبل أن تقتنعن... وأنا أتساءل لماذا تقتنع بعض النساء بفضيلة العري، ولماذا يصعب الاقتناع بأوامر الله، بينما يسهل الاقتناع بإغراءات الشيطان؟». وقد تحجبت كاميلا العربي، وهي امرأة جذابة، دقيقة الملامح، رقيقة البشرة في ذروة اشتغالها بمهنتها. وارتدت الحجاب أولاً مدة سنتين، ثم تحولت إلى النقاب. وعندما لقيتها في الميتم الذي أسسته في حي المعادي من التبرعات والأموال الشخصية، قالت لي إنها ترتدي النقاب منذ ست سنين، وشرحت لي تحولها من نجمة تلفزيونية إلى «إمام» عيّن نفسه بنفسه.

«ربيت تربية دينية، وكنا نعاقب إذا لم نصم. والمصريون يربون على الدين. ولكننا نحسب أنها التقاليد. وعندما كبرت اعتدت أن أصلي حتى الفجر، ثم أذهب إلى محطة التلفزيون وأعمل. وذات يوم كنت أقرأ القرآن وبدأت أبكي، وقلت لنفسي إن شيئاً ما مفقود في علاقتي مع الله. وقررت أن الكشف عن شعري مخالف لحكم الله، وكانت هذه البداية».

«وألهمني الله مباشرة، وليس عن طريق شيخ من المشايخ. وكان زوجي

يعارض ارتدائي للحجاب، وكان يريدني أن أكون أنيقة، غير أنه أذعن في النهاية».

وبينما يعد ملايين الرجال والنساء في أرجاء العالم الإسلامي ارتداء الحجاب واجباً في الإسلام، يتناقش الزعماء الدينيون فيما إذا كان التقليد مطلباً دينياً في الواقع. وتوجد أشكال متنوعة للحجاب في كثير من الأديان، ولكن الممارسة تجلت في صورة الملمح الأكثر إثارة للمشاعر على الإطلاق في حركة الإحيائية الإسلامية المعاصرة. وفي مصر، استفز النقاش شيوخ الأزهر المحافظين ضد خصومهم الأكثر حداثة، وأثار هذا قضاة معينين من قبل الدولة في أعلى محاكم مصر لإصدار أحكام تتناقض مع سياسات الدولة. كما أصبح ارتداء الحجاب مقياساً لشرف المرأة، وكرامتها، ووطنيتها وإخلاصها للإسلام.

والمناقشة القرآنية تتمحور إلى حد بعيد حول الآية التالية، التي تظل مفتوحة لتأويلات متباينة تبايناً شاسعاً: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 31][5].

وعلى كل حال فهذه الآية تطرح سؤالاً أساسياً: هل ينبغي أن تعتبر كل نساء المسلمين على مستوى أزواج النبي محمد ﷺ.

وربما كان صاحب الصوت الأكثر ارتفاعاً ضد إلزامية الحجاب هو محمد سيد عشماوي، المستشار المصري السابق، الذي يحتج بأن أحاديث النبي عن الحجاب كانت مقصورة على أزواجه، ولا ينبغي أن تنطبق على مجتمع

المؤمنين كافة. ويؤكد عشماوي أن الحديث النبوي الذي يستشهد به أكثر من أي حديث سواه لدعم مؤسسة الحجاب، لم يصدر إلاّ لإعلام المسلمين بالسلوك اللائق عند زيارة بيت النبي ﷺ، وليس أمراً للنساء بوجه عام. وعلى الرغم من أن مفكرين إسلاميين من أهل التقوى والرصانة في مصر شككوا بمصداقية العشماوي، فإن موقفه من الحجاب يلقى التأييد من قبل أكثرية من العلمانيين.

غير أن الجدال حول الحجاب لا يقتصر على مصر، وقد انتقل، بالنسبة إلى كثير من الإسلاميين المعاصرين في أرجاء العالم الإسلامي، إلى ما وراء التفسير الحرفي للقرآن والحديث، ليأخذ صيغة رسالة محددة للحياة الحديثة. وهم يقولون إن الحجاب ينبغي أن يكون إلزامياً للحفاظ على سلامة العلاقات بين الجنسين وتحاشي الفتنة، والفوضى والتشوش داخل المجتمع اللذين تطلقهما مقدرة المرأة على إثارة الشهوة المنفلتة من عقالها بين الرجال. وبالنسبة إلى هؤلاء الإسلاميين، يعد الحجاب أيضاً رفضاً لأعراف الغربيين، ودرعاً ضد غزو الفساد والفسوق اللذين يغذيهما الغرب. ويشرح أحد كبار رجال الدين الإيرانيين، وهو مرتضى مطهري، الذي اغتيل سنة 1979، هذا الجانب من الحجاب في كتابه «حول الحجاب الإسلامي» قائلاً: «هل سيعمل الرجال بشكل أفضل في بيئة تمتلئ فيها الشوارع والمكاتب والمصانع، إلخ... على نحو متواصل بنساء متبرجات وشبه عاريات، أم في بيئة لا توجد فيها هذه المشاهد؟... والحقيقة هي أن الغياب المعيب للحجاب في إيران قبل الثورة... هو إحدى نتائج المجتمعات الغربية الرأسمالية الفاسدة. وهو إحدى نتائج عبادة المال والجري وراء الإشباع الجنسي الذي يسود بين الرأسماليين الغربيين»[6].

ومع هذا القدر الكبير من الرأسمال السياسي والاجتماعي والعاطفي المستثمر في حجاب النساء، لا عجب أن يزج بهذه المؤسسة في المقدمة في مجتمعات الشرق الأوسط الأكثر ارتباطاً بنهوض النشاط الإسلامي. فمن طهران

إلى استنبول، إلى القاهرة، يؤدي الحجاب دور الرمز الوطني الكامن لقوة الإسلاميين، رمز أكثر دقة وإفادة إلى حد بعيد من الصور الذهنية الغربية المبتذلة (الكليشيهات) للمجاهدين الملتحين الذين يؤدون صلاتهم إلى جانب بنادق الكلاشينكوف. وحين تدخل مع أي إيراني، أو تركي، أو مصري من العلمانيين في محادثة ولو عرضية، فلا بد أن يتحول الموضوع إلى ارتداء الحجاب. لقد نظرت المرأة الإيرانية إلى ثورة 1979 الإسلامية، كما فعل الكثير من شرائح السكان، على أنها بديل لفساد الشاه ونظامه المستغرب. وكانت نساء المدن المتعلمات ينظرن إلى الحجاب على أنه رمز لتفريقهن، ولكن كثيراً منهن لم يتوقعن أن يصبح الحجاب ممارسة دائمة. وبعد نحو سنة ونصف من الثورة، أعلن آية الله الخميني أنه يود أن يرى النساء في ثياب «محتشمة»، وسرعان ما أصبح الحجاب بعد ذلك إلزامياً. واحتج الإسلاميون بأن النساء فقدن شرفهن وكرامتهن تحت حكم الشاه الذي اعتنق، بصراحة منظومة القيم الغربية. وغدت النساء الإيرانيات الغنيات، المشهورات في كل أنحاء العالم بولعهن بأزياء المصممين الباذخة والمجوهرات الثمينة، هدفاً لرجال الدين فجأة. وعلى العكس من صورة المرأة الإيرانية المشغولة بمتعها الذاتية والمستغربة إلى حد بعيد، حين كانت تعرض كنموذج يعجب به الجميع في أيام نظام الشاه، يجب على المرأة المثالية، كما روَّج لها عالم الاجتماع الإيراني علي شريعتي، أن تكون نبيلة، عفيفة، معادية للنزعة المادية[7]. وكانت الصورة الجديدة للمرأة النموذج جزءاً من تطهير الثقافة والمجتمع الإيرانيين من داء التغرب المخيف.

وبعد عشرين سنة من الثورة الإسلامية، يتخلى الكثير من النساء الإيرانيات في الطبقات الوسطى والعليا عن الحجاب بقدر ما يستطعن ويوسعن إلى أقصى الحدود الممكنة مدى النافذة التي فتحتها الإصلاحات الاجتماعية والسياسية منذ أن وصل الرئيس محمد خاتمي إلى السلطة في آب / أغسطس 1997، على أن أخواتهن الموسرات في مصر، ينزعن، في هذه الأثناء، إلى

ارتداء الحجاب بأعداد مطردة. وهذا التناقض الصارخ يوضح الفرق الكبير بين إيران، البلد الذي فرض نظامه الإسلامي من القمة إلى القاعدة غالباً، ومصر، المجتمع الذي يقيم نظاماً إسلامياً من القاعدة نحو القمة، مع اقتران ذلك بتأييد صادق من عامة السكان.

وفي تركيا المجاورة، التي كانت منذ عهد غير بعيد مركز الإمبراطورية العثمانية الفسيحة الأرجاء، ومثلت ذات مرة موطن السلطة العليا في الإسلام السني، برز الحجاب أيضاً كقضية من أكثر القضايا التي تواجه البلاد إثارة للنزاع والشقاق. وفي الحقيقة، فإن الجهود التي بذلت من قبل أول رئيس وزراء إسلامي منتخب في تركيا، نجم الدين أربكان، لتخفيف وطأة القيود المفروضة في سنة 1996 على ارتداء الحجاب في مكاتب الحكومة، وفي ساحات الحرم الجامعي (وكانت جزءاً من مجموعة من الإصلاحات «الإسلامية» الرمزية ولكن الجوفاء إلى حد بعيد) أثارت موجة من الهستيريا في الصحف الرئيسية، وساعدت في سقوط حكومته حيث أرغمت قوى العلمانيين التي يساندها الجيش القوي أربكان على الخروج من الحكم في حزيران / يونيو 1997، وحظرت حزبه، حزب الرفاه. ويرجع تاريخ الجدال في تركيا حول الحجاب إلى الأيام المبكرة للجمهورية التي تم تجميعها من بقايا الإمبراطورية العثمانية. وحظر كمال أتاتورك، المؤسس العلماني لتركيا الحديثة، الطربوش (الذي يتيح لمرتديه أن يسجد في الصلاة)، والأشكال الأخرى من اللباس الإسلامي للرجال في خطبته الشهيرة («خطبة القبعة») التي ألقيت في مدينة صغيرة على ساحل البحر الأسود سنة 1925. واستخدم مظاهر مماثلة لصرف الناس بصورة فعالة عن ارتداء الحجاب. وعلى الرغم من أن غطاء الرأس والأشكال الأخرى من الحجاب لم تحظر صراحة، إلاّ أنها منعت في النهاية في دوائر الحكومة والبرلمان وجامعات الدولة، وكل المؤسسات العامة. وكان أتاتورك، الذي لم يتوفر له كثير من الوقت للدين، ينظر إلى

العباءة والحجاب، والطربوش، على أنها أشياء من بقايا نظام أخفق وتجاوزه الزمن، ويرى أن الأتراك العصريين أوروبيون، ولهذا ينبغي لهم أن يرتدوا الحلل الأوروبية، وربطات العنق، والقبعات الملائمة ذات الحواف. وينبغي للنساء أن لا يخفين شعرهن أو سيقانهن. وكان أتاتورك يدرب في قصره الرئاسي في العاصمة الجديدة أنقرة، جيلاً من بنات الأمة على الأساليب الأوروبية، حيث رقصت النساء بالملابس القصيرة، وشربن الخمر، ودخن السجائر علناً. وكما حدث فيما بعد، في مصر عبد الناصر، انبثق «مظهر» علماني من مسرح تركيا السياسي، ولا سيما بالنسبة للنساء.

ومع ذلك، فلم يختف الحجاب كلياً، بل ظل، ببساطة، معزولاً وبعيداً عن عيون وقلوب الكماليين، في بلدات وقرى هضبة الأناضول. والفلاحون الأتراك محافظون بالفطرة، وسيتطلب الأمر أكثر من دينامية أتاتورك التي لا ريب فيها، للقضاء على الحجاب التقليدي (التربان). وشهدت الهجرة الواسعة النطاق إلى المراكز الحضرية الكبرى على مدى العقود الحالية، انتشاراً واسعاً للثقافة الأناضولية في أنقرة، واستنبول، والمدن الكبرى الأخرى، وهي عملية ساعدت عليها الطرق الجيدة ووسائل المواصلات. وقد جاءت الجماهير الأناضولية معها بالحجاب إلى قلب المدن مع طعامها وعاداتها وأسرها الكبيرة.

قالت لي امرأة في الخمسين من العمر، تملك مصرفاً دولياً، في حفل استقبال في استنبول: «عندما نشأت في استنبول لم تكن لديَّ فكرة عن (الكباب) أو (اللخمصون)، لم نسمع قط بأمثال هذه الأطعمة، ولم نر امرأً بالتربان ـ العمامة ـ»، وأضافت بتنهيدة «كنا جزءاً من أوروبا». وثمة آخرون مثلها يندبون ضياع «نكهة» استنبول «البيزنطية» التي تمزج المؤثرات التركية واليونانية والأرمنية واليهودية والإيطالية، التي غرقت الآن تحت طوفان القومية

الثقافية والدينية. وكانت هذه العملية كاملة إلى حد جعل تركيا الحديثة اليوم مسلمة بنسبة 99٪.

وخلافاً لمصر، حيث يتعرض المجتمع لتحولات عميقة، تعكس نهضة الإسلام في تركيا إعادة متأخرة كثيراً لتوازن القوى بين النخبة المتأوربة والجماهير التقليدية. وعلى الرغم من الهزيمة على يد الجيش وحلفائه من السياسيين العلمانيين، يظل الإسلاميون في تركيا يمثلون حضوراً قوياً. ويظل الحجاب إشكالياً للأتراك كعهده دوماً. أما الطلاب الإسلاميون في الجامعات، الذين يحظر عليهم المسؤولون العلمانيون ارتداء الحجاب، أو إطلاق اللحية «الإسلامية» الصغيرة، في الصور الفوتوغرافية الخاصة بالبطاقة الشخصية المطلوبة لأداء الامتحانات، فلا يظهرون أية علامات تشير إلى إنهاء احتجاجاتهم الدورية، التي تشمل على نحو متكرر، صدامات مع قوات الأمن. وفي هذه الأثناء، يواصل المحامون والأطباء وأساتذة الجامعة الإسلاميون تحديهم لحظر غطاء الرأس في قاعات المحاكم ومستشفيات الدولة وصفوف المدارس، مستشهدين في كثير من الأحيان بمصادقة تركيا العلنية لحقوق الإنسان العالمية، بما فيها حرية الدين، دعماً لمطلبهم.

وفي أيار / مايو 1999، سببت عضوة إسلامية انتخبت حديثاً للبرلمان جلبة وصخباً عندما حاولت أن ترتدي غطاء الرأس داخل قاعة الجمعية الوطنية التركية الكبرى، وهي بادرة ينظر إليها الكثيرون في السلطة على أنها عدوان مباشر على العلمانية الرسمية. وطارد النائبة مروى قاوقجي، في القاعة نواب الجناح اليساري الساخرين، بينما كانت الأكثرية المحافظة تجلس صامتة محرجة. وفيما بعد جردتها الحكومة من جنسيتها التركية بعد أن تبين في التحقيق أنها حصلت على جواز سفر من الولايات المتحدة عندما كانت تعيش في أمريكا، واستأنفت مروى قاوقجي القرار.

وعلى الرغم من المد والجزر في الجدال الدائر حول الحجاب في تركيا، فهو في جوهره يمثل وضعاً ساكناً مستقراً، تؤطره قوى طبقية وتقليدية صبورة لا ديناميات صحوة دينية. وبصرف النظر عن «هداية» بعض كبار المشاهير الأتراك، تظل الحركة الأوسع نحو الإسلام والحجاب بين النساء الثريات والمتعلمات، (المماثلات لمنى، وديلجين وسوزان)، أمراً غير وارد في تركيا. فالخطوط الفاصلة بين العلمانيين والمتدينين أكثر عمقاً وصلابة. ولا يحتمل رؤية المشهد المصري الشائع لابنة محجبة تسير مع أمها السافرة المستغربة، في أي وقت قريب في شوارع استنبول أو أنقرة، حيث لا تتحجب في كثير من الأحيان سوى العجائز في الأسرة.

إن مرونة المجتمع المصري، إضافة إلى علاقته الطويلة بالدين، هما اللتان ساعدتا على نشوء مناخ الصحوة الإسلامية الحالي، وهي ظروف لا تتوافر في تركيا، ولا في الجمهورية الإسلامية الإيرانية. فالمحرومون من حقوقهم في إمبابة، والمشايخ المنشقون في الأزهر، وطبقات المهنين الإسلاميين المنبثقة، وطلبة الجامعة، وطيف واسع من النساء ـ كل هؤلاء ظهروا كلاعبين متميزين، وناشطين وفاعلين في هذا الدراما. وفي مجتمع يؤكد كل هذا التأكيد على دور النساء «كحاملات الثقافة» ـ وضامنات لصحة مجتمع المؤمنين وبقائه ـ ربما كان جمهور أنصار هذا الأخير هو الذي ينطوي على الخطر الأعظم، على المدى الطويل بالنسبة إلى النظام العلماني الذي يمسك بزمام السلطة الآن.

كان آية الله الخميني، الذي يجب أن يصنف كواحد من أعظم خبراء التكتيك الثوري في القرن العشرين، يفهم الدور الحيوي للمرأة في الحركة الإسلامية: «إذا تغيرت المرأة تغير المجتمع». وهذا يصح من باب أولىٰ عندما تكون المرأة المعنية متعلمة، وغنية، وقوية.

ومن جهته، كان عبد الكافي مقتنعاً بأن ما دفع الدولة إلى منعه عن المنبر ووضعه قيد الإقامة الجبرية المؤقتة، هو نجاحه في الوصول إلى الأنساق العليا من المجتمع، وليس المضمون المحدد لخطبه ودروسه. وقال يشرح لي بعد أربع سنوات من الحظر المفروض عليه: «لم يخبرني أحد عن السبب، ولكني أعتقد أن السبب الرئيسي هو أنني تسللت إلى طبقة معينة في المجتمع ـ زوجات رجال الأعمال، وزوجات الوزراء والممثلات. والدولة لم يعجبها هذا».